مع الشاعر الثائر عبد المطلب الأمين
في المغامرات الليلية في جميع بارات العاصمة

لا أعرف من أين أدخل في عالم عبد المطلب الأمين. فهو عالم متعدد ومتناقض. لكن القاسم المشترك بين التعدد والتناقض إنما يتمثل في شخصيته ذاتها التي يصعب حصرها بسمة واحدة حتى من قبل الذين هم أعرف الناس به، وأكثرهم التصاقاً بمسار حياته في مراحلها المختلفة. وأزعم أنني أعرف عبد المطلب معرفة جيدة بحكم العلاقة التي نشأت بيني وبينه منذ مطالع خمسينات القرن الماضي واستمرت على امتداد ربع قرن حتى لحظة مغادرته الحياة.

عرّفني إلى عبد المطلب صديقه التاريخي الأديب والمفكر التراثي الشهيد حسين مروة. وقرأت ما كتبه عنه في مقدمة ديوانه الناقص الذي صدر بعد وفاته. لم يشأ "أبو نزار" أن يشير إلى علاقة الصداقة القديمة والعميقة التي ربطته بعبد المطلب. وهي مليئة بالجوانب الإنسانية كما سمعت عنها من كليهما. وقد تعرفت إلى عبد المطلب بواسطة "أبي نزار" بالذات. وصرت رفيقاً له في بعض لحظات حياته، التي أغنت معرفتي به، وأغنت ثقافتي في ميادينها المختلفة. كانت البداية في مطالع الخمسينات كما أشرت إلى ذلك. رافقته في بعض مغامراته الليلية في بارات العاصمة بين ساحة البرج ومنطقة الزيتونة. وهي كانت لحظات جميلة أدخلني الجانب العفوي الطاغي فيها في عالم عبد المطلب الانسان والشاعر والسياسي والمفكر. وكان الشعر رفيقنا الدائم في تلك الجلسات الممتعة الطافحة بالمرح والفرح والسخرية من كل شيء في حياتنا السياسية والاجتماعية. وكانت حكايات عبد المطلب عن بعض لحظات في حياته رفيقنا الآخر. وكان من بين تلك الحكايات ما يتصل بالمرحلة التي كان يشغل فيها موقع القائم بأعمال السفارة السورية في موسكو في عام ١٩٤٦، العام الذي استكملت فيه سوريا استقلالها بجلاء القوات الأجنبية عن أراضيها.

ولد عبد المطلب في دمشق في عام ١٩١٦. وتوفي في بيروت في عام ١٩٧٤. ودفن في بلدة شقرا الجنوبية، بلدة والده المرجع الديني السيد محسن الأمين وأحد كبار آل الأمين. وفي تلك البلدة دفن والده وجميع أشقائه وشقيقاته. أتم دراسته الابتدائية والثانوية والجامعية في دمشق. وتخرج من جامعة دمشق مجازاً في الحقوق. مارس التدريس في دار المعلمين الريفية في منطقة الكرادة الشرقية الواقعة في جنوب مدينة بغداد. كان ذلك أول عمل وظيفي له. ثم عيّن مستشاراً في وزارة الخارجية السورية بعد تأسيسها في أعقاب تأسيس الدولة السورية في عام ١٩٤٦. وأرسل إلى موسكو كأول قائم بأعمال السفارة السورية فيها. ثم نقل إلى السفارة السورية في بغداد. ونقل بعد

ذلك إلى الإدارة المركزية في الوزارة. تمرد على انقلاب حسني الزعيم فأقيل من الوزارة وانتقل إلى لبنان. وصار منذ مطالع الخمسينات مواطناً لبنانياً من دون أن يلغي بطاقة هويته السورية. فهو سوري في الولادة وسوري ولبناني في مجمل جوانب ومراحل حياته. عيّن في لبنان قاضياً في المحاكم المدنية. واستمر في تلك الوظيفة بضعة أعوام. ثم استقال وانتقل إلى العمل الحر في مهنة المحاماة. كانت الكويت المرحلة الأولى من ممارسته لتلك المهنة. لكنه لم يبق طويلاً في عمله المهني. بدأ يمارس الكتابة في الصحافة السورية أولاً ثم في الصحافة اللبنانية في المرحلة الأخيرة من حياته. قام بأعمال ترجمة مستفيداً من كونه يتقن الفرنسية والانكليزية والروسية. وكانت جريدة "النداء" المكان الأخير والأقرب إلى قلبه وعقله التي أحب أن يدوّن على صفحاتها أفكاره وانطباعاته في الفكر والأدب والسياسة، في زاويته اليومية التي كانت بعنوان "على سن الرمح". وكانت أجمل فترة رافقته فيها ثم ودعته منها إلى مثواه الأخير. وكنت من موقعي في الحزب الشيوعي وفي الجريدة قد اقترحت عليه أن يزاول عمله في الجريدة على راحته. لكن الكتابة عن عبد المطلب الأمين بعد تلك الأعوام الطويلة من غيابه، إذ أستند فيها إلى السمات الأساسية من شخصيته فإنها تستدرجني وتستدرج الآخرين ممن كتبوا عنه إلى قراءة شعره باعتباره الأكثر تعبيراً عن شخصيته في تعددها وتناقضها.

أما ما يخصني في قراءتي لشخصية عبد المطلب الأمين فأشهد، من خلال مرافقتي له على امتداد ربع القرن الأخير من حياته، أنني كنت أكتشف يوماً بعد يوم جوانب جديدة من سمات شخصيته. وهي تتلخص في قراءتي لها بثلاث سمات أساسية. السمة الأولى والأهم، في نظري، هي سمة الإنسان الحقيقي الصادق في التعبير بعفوية عن ذاته وعن آرائه وعن مواقفه وعن مشاعره. السمة الثانية هي سمة المفكر الحر، الذي انتمى إلى الماركسية على طريقته، من دون أن ينتظم في حزب، ومن دون أن يقبل أية رقابة من أية جهة أتت على ممارسته لحياته ولأفكاره ولسائر ميادين نشاطه. وكان بهذا المعنى نموذجاً راقياً للمثقف النقدي الذي لا يركن إلى يقينيات مطلقة حتى باسم الأيديولوجية التي كان يلتزم بها. السمة الثالثة هي سمة الشاعر الحر. فالشعر عنده هو أهم أشكال التعبير عن كل ما يختزنه في عقله وفي وجدانه من الأفكار والانفعالات والمشاعر والمواقف من دون طغيان أي جانب منها على الجانب الآخر. ويستطيع قارئ شعره أن يلمس ذلك من دون جهد. وهكذا يبدو لقارئ شعره من دون جهد الغنى في أفكاره وفي مشاعره والغنى في سيرته التي تشير إلى تعدد وتناقض شخصيته. وأشهد، وأنا أقرأ سيرته، أنه كان ثائراً ومتمرداً على الواقع الذي كان سائداً في بلداننا العربية. وكان، وهو في موقع مختلف عن والده السيد محسن، يرى في هذا

الوالد نموذجاً راقياً من موقعه الديني في التصدي للخرافات والبدع التي تتناقض مع قيم الدين. لذلك فحين رثاه في قصيدة عامرة كان يعبر عن تقديره للدور التنويري الذي لعبه والده السيد في بلده لبنان وفي منطقة الجنوب على وجه الخصوص، وقبل ذلك وبعده في دمشق بالذات التي كانت المدرسة العلوية التي أنشأها في مطالع القرن الماضي. وكان السيد في الآن ذاته واحداً من كبار العاملين والمؤثرين في الحركة الوطنية السورية في الثلاثينات والأربعينات التي كانت تناضل من أجل استقلال سوريا. يقول عبد المطلب ي قصيدة رثاء والده:

لقد قبع الجرح في صمته فلا الشعر يقوى ولا البلسم
وصمت الجراح كصمت القبور رهيب الكآبات لا يرحم
وقفت على القبر والوعتي فقلبي جراح وجرحي فم
وقد حفّ بالخافق الصامتان فهذا عيي وذا أعجم
وأنجدني الدمع وارحمتاه لسمح رحيم ولا يرحم
ولا عجب فهو سبط الجراح تعالي الجراح وجلّ الدم

تبرز في شعر عبد المطلب الأمين، كما أشرت إلى ذلك آنفاً، كل هواجسه وكل أفكاره وكل انفعالاته. وتبرز معها مواقفه من أحداث بلاده وأحداث العالم. وتبرز تساؤلاته حول الحياة والموت، وحول الوجود وكينونة هذا الوجود. وهو يطرح في قصيدة بعنوان "نكون أو لا نكون" تساؤلات يكرر فيها عبارة "نكون أو لا نكون" لكن بمعنى مختلف وبهاجس مختلف عما كان يرمي إليه شكسبير في تكرار تلك العبارة.

يقول عبد المطلب في مطلع هذه القصيدة:

ماذا يقول العاشقون،
ماذا يقول المائتون،
ماذا يقول الميتون؟
سأموت.. ماذا بعد؟ سوف يفلسفون
سيضحكون ويسخرون
ماذا يهم أسرى المياسم والعيون
وعلى الشفاه تضيّع المأساة
في صخب المجون
سيقال سكير تقاذفه القناني والعيون

سيقال عربيد متاهته الصراحة والجنون
سيقال.. قد قيل الكفاية، فاطمئنوا لن يكون
إلا بعيض الـ"كان" قد يكن اليكون
كبر الحساب فلن يسرّ الدائنون
عفواً شكسبير العظيم فقد يهون
أن لا نكون.. إما نكون بلا حواس ولا عيون
وبلا عزاء ولا ثغاء ولا عواء ولا شجون
سأموت.. ماذا بعد؟ سوف يفلسفون
سيضحكون ويسخرون
ماذا بهم أسرى المباسم والعيون
وعلى الشفاه تضيّع المأساة
في صخب المجون
سيقال سكير تقاذفه القناني والعيون
سيقال عربيد متاهته الصراحة والجنون
سيقال.. قد قيل الكفاية. فاطمئنوا لن يكون
إلا بعيض الـ"كان" قد يكن اليكون
كبر الحساب فلن يسر الدائنون
أن لا نكون أو أن نكون
تلك القضية .. يا لوعثاء السنين!.
واخيبة الوغد المضرج بالحزون
واضيعة الجرح المضمخ للشفاه وللعيون
واوحشة اليأس الذي عضته أنياب المنون
أما الصّدا.. أما الرّجا.. أما الفتون...
استغفر الأحلام. واخجلي من الرؤيا الحرون
...
أن لا نكون أو أن نكون
تلك القضية.. يا لوعثاء السنين!

واخيبة الوعد المضرج والحزون
واضيعة الجرح المضمخ للشفاه وللعيون
واوحشة اليأس الذي عضته أنياب المنون
أما الصدأ.. أما الرجا... أما الفتون..
أستغفر الأحلام. واخجلي من الرؤيا الحزون

لكن الوجع الذي تشير إليه هذه القصيدة سرعان ما يتسع عندما تتحول أسئلته الوجدانية إلى زئير في وجه الطغاة والخونة الذين صنعوا لبلداننا هزائمها المتتالية. فهو يصب جام غضبه في عام ١٩٤٩ في وجه حسني الزعيم صاحب انقلاب عسكري في المرحلة التي أعقبت استقلال سوريا. يقول في قصيدة هجاء للزعيم:

أدعوك ماذا؟ بالرئيس أم الزعيم أم المشير
شبك من الألقاب خفت على اللسان من العثور
حمّلتها مبهوظ ظهر غير مبهوظ الضمير
إني رحمتك من عظيم اللفظ في المعنى الصغير
ورحمت نفسي أن أهين الشعر في نخل القشور
وجزعت إن قصّرت عن شأو الفرزدق أو جرير

ولدمشق التي ولد فيها ونشأ وتكوّنت العناصر الأساسية من شخصيته مكان خاص ومميّز في عقله وفي وجدانه. فهو يناجي دمشق بقصيدة بعنوان "أمي دمشق". يقول في مطلعها:

طيبي دمشق ثرى وطيبي محتدا عبق الجنان على ثراك تجسدا
وأشم تربك عاشقاً بل عابداً طفلاً بأحضان الأمومة راشدا
طال الفراق وما سلوت ولا غفا ثمل بأنغام الوفا قد عربدا
بيتي القديم وجارتي ومدارسي والحب والذكرى سخية والصدا
كم في دروبك من خطاي معالم كالوشم إبقاء ورفقاً كالندى
كم في سمائك من خيالي موكب للمجد كم راض النجوم وجندا
كم في رياضك من فؤادي صبوة غنى الهوى فيها وسار وأنشدا
أمّاه إن يقس الزمان فما قسا قلب الوليد الطف فيك بل اهتدى
لا تنكري يا شام حبّي، لهفتي أملي صلاتي وابتهالي والندا

محراب حبّك إن سجدت ببابه سجد الوفاء ملوعاً متنهدا

ولا ينسى عبد المطلب، وهو العروبي العريق أباً عن جد، فلسطين الذبيحة. فهو يتذكرها في قصيدتين. الأولى التي يرفع فيها صوته هادراً ضد الذين صنعوا هزيمة حزيران. والثانية يرثي فيها الأديب والمناضل الفلسطيني غسان كنفاني.

يقول في القصيدة الأولى بعنوان "بعد هزيمة حزيران" يعارض بها قصيدة أحمد شوقي التي مطلعها "قم ناجي جلّق":

نم وانس جلّق واندب حظ من هانوا على الأرائك أطفال وغلمان
على الحدود تلاميذ ومدرسة وفي السرايات ضباط وأركان
مع العدو رعاديد وأقفية مع الرفاق منافيخ وشجعان
مع الجواسيس تطنيش ومغيبة وفي المباحث تعذيب وإمعان
...
لولا دمشق لما طارت قنيطرة ولا ازدرى ببني القفقاس دايان
كل الشهور وصمناها بمأثرة وكان آخر من قاس حزيران
وقبله كان آذار وثورته وجاء من بعد تشرين ونيسان
أما شباط فلم نترك به رمقاً للثائرين فللثوار أحزان
وكان يوليو: وحدث دونما حرج عن الشقيق ليوليو نحن أخوان
وأشهر الهجرة الغرّاء رصعها من الأشقاء بالثورات رمضان

ويرثي في القصيدة الناثية غسان كنفاني:

كلمات لا تجدي إن ثارت أو خفتت
كلمات في كبدي في عقلي في جسدي
في وهم أو بين يدي كلمات لا تجدي
قد كنت الكلمة
الكل الكل الكلمة

كالبرعم والصلد
كالصخر وكالورد

لا بدء بلا كلمة
لا شيء بلا كلمة

لا مجد بلا كلمة

لكنه يرى في ثوار بور سعيد الذين وقفوا في وجه العدوان الثلاثي على مصر في عام ١٩٥٦ أملها. توجه إليهم بتحية من القلب طافحة بالاعتزاز وبالأمل.

للفدائيين ببور سعيد
سجد اللظى وعنا الحديد
واستسلم القدر العنيد
لما يريد ولا يريد
واستروح التاريخ عطر دمائهم يبغي المزيد
عطر هنا وهناك ما فاحت به جيف الغزاة
نتن يلوّث بالصديد وبالقذى زبد القناة
وحقارة الإنسان يزكم أنفها نتن الصديد
للباذلين ببور سعيد